محمود الحسين | Mahmood Alhosain*

المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/DNMH4884

"طريق هيئة تحرير الشام إلى السلطة في سورية": قراءة في ديناميات التحول التنظيمي والفكري

Transformed by the People: Hayat Tahrir Al-Sham's Road to Power in Syria

The Dynamics of Organizational and Intellectual Transformations

عنوان الكتاب في لغته: *Transformed by the People: Hayat Tahrir Al-Sham's Road to Power in Syria*.

عنوان الكتاب: التحوّل بفعل الشعب: طريق هيئة تحرير الشام إلى السلطة في سورية.

المؤلفان: باتريك هيني وجيرومي دريفون Jerome Drevon & Patrick Haenni.

سنة النشر: 2025.

الناشر: دار نشر هيرست Hurst Publishers.

عدد الصفحات: 320.

* باحث دكتوراه، جامعة رادبود، هولندا.

PhD Candidate, Radboud University, Netherlands.
Email: Mahmood.alhosain@ru.nl

مقدمة

مثّلت سورية، منذ انطلاقة الثورة السورية في آذار/ مارس 2011، ميدانًا خاصًا للدراسات البحثية والأكاديمية، ضمن حقول معرفية مختلفة، حول الأنظمة السلطوية[1]، واقتصاد الحرب[2]، والعسكرة والنزاع المسلح[3]، وفواعل الدولة وما دون الدولة[4]. وفي السنوات الأخيرة، ومع دخول النزاع مرحلة الصراع الكامن، برز اسم "هيئة تحرير الشام"، بوصفها فاعلًا ما دون الدولة، يعمل على مشروعه الخاص في محافظة إدلب شمال غرب سورية، وهي المعقل الأخير لفصائل المعارضة السورية المسلحة.

ضمن هذا السياق، صدر كتاب **التحوّل بفعل الشعب: طريق هيئة تحرير الشام إلى السلطة في سورية** *Transformed by the People: Hayat Tahrir Al-Sham's Road to Power in Syria* للمؤلفَين باتريك هيني وجيرومي دريفون، أحد الأعمال الأكاديمية الحديثة التي تسعى إلى فهم مسار التحول الذي شهدته الهيئة. ويتتبّع الكتاب تطورها منذ نشأتها بوصفها حركة جهادية في سورية تحت مسمّى "جبهة النصرة لأهل الشام"، ثم تحوّلها إلى "جبهة فتح الشام" عقب إعلان فكّ الارتباط بتنظيم القاعدة، وصولًا إلى هيئة تحرير الشام، التي أصبحت القوة العسكرية والسياسية المهيمنة شمال غرب سورية، والتي شنّت في أواخر عام 2024 عمليةً عسكرية ضد قوات نظام بشار الأسد والميليشيات المتحالفة معه، أطلقت عليها اسم عملية "ردع العدوان"، واستطاعت بموجبها إسقاط النظام والوصول إلى الحكم[5].

يُعدّ هذا الكتاب ثمرة جهد بحثي بدأ عام 2019، ولم يتوقع مؤلفاه أن تفضي التحولات التي يتناولانها، مع اكتماله، إلى وصول الهيئة إلى الحكم في سورية بحلول نهاية عام 2024. يصف الكتاب لحظتَين مفاجئتَين رافقتا سقوط نظام الأسد وما أعقبه؛ تمثلت الأولى في سقوطه السريع، وهو ما مثّل مفاجأة حتى لقادة غرفة عمليات ردع العدوان أنفسهم. وينقل المؤلفان عن القائد العسكري في الهيئة، أبو حسن الحموي، الذي تولى لاحقًا منصب وزير الدفاع، قوله: "في بداية العملية العسكرية، لم يكن أحد يتوقع هذا السقوط السريع للنظام السوري خلال أحد عشر يومًا فقط" (ص 1). وتمثلت المفاجأة الثانية التي أعقبت سقوط النظام في رد فعل المجتمع الدولي على سيطرة الهيئة على دمشق، وهذا يختلف اختلافًا جذريًا عن رد الفعل العنيف الذي رافق سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش" على الموصل عام 2014. فعلى النقيض من ذلك، سارع ممثلو الدول إلى لقاء الرئيس السوري، أحمد الشرع وفريقه، بمن فيهم أنس خطاب الذي تولّى لاحقًا منصب وزير الداخلية، وأسعد الشيباني الذي تولّى منصب وزير الخارجية، ومرهف أبو قصرة الذي تولّى منصب وزير الدفاع، وبهذا عادت سورية مجددًا إلى محيطيها الإقليمي والدولي بعد عزلة فُرضت على النظام السابق بسبب سياسته القمعية ضد مواطنيه (ص 1-2).

يقدّم الكتاب بحثًا ميدانيًا إثنوغرافيًا من خلال إجراء مقابلات مع قادة الهيئة[6]، بمن فيهم أحمد الشرع[7]، إضافةً إلى مقابلات مع أعضاء من حكومة الإنقاذ، والمنظمات الأجنبية، ودبلوماسيين، ومنظمات المجتمع المدني، والشخصيات الدينية، ورجال الأعمال والناشطين داخل إدلب وخارجها، وقيادات المعارضة المسلحة، سواء التابعة للهيئة أو المعارضة لها أو المهزومة من قبلها، وكذلك المنشقين عن الهيئة وعن جبهة النصرة سابقًا[8]. طرأت تغيّرات نوعية على الهيئة خلال السنوات الأخيرة، بحيث

1 Steven Heydemann, "Tracking the 'Arab Spring': Syria and the Future of Authoritarianism," *Journal of Democracy*, vol. 24, no. 4 (2013), pp. 59-73; Reinoud Leenders & Kholoud Mansour, "Humanitarianism, State Sovereignty, and Authoritarian Regime Maintenance in the Syrian War," *Political Science Quarterly*, vol. 133, no. 2 (2018), pp. 225-257.

2 Marwan Kabalan, "Political Economy of the Syrian War: Patterns and Causes," *The Economics of Peace and Security Journal*, vol. 16, no. 2 (2021).

3 Ammar Shamaileh, "Political Succession, Liberalization, and Economic Development in Syria," in: Boy Luethje (ed.), *Civilization and Governance: The Western and Non-Western World* (Singapore: World Scientific Publishing Co, 2023), pp. 149-173; Steven Heydemann, "The Syrian Conflict: Proxy War, Pyrrhic Victory, and Power-Sharing Agreements," *Studies in Ethnicity and Nationalism*, vol. 20, no. 2 (2020), pp. 153-160; Erwin van Veen, *Armed Organizations and Political Elites in Civil Wars: Pathways to Power in Syria and Iraq* (London: Routledge, 2024).

4 May Darwich, "Foreign Policy Analysis and Armed Non-State Actors in World Politics: Lessons from the Middle East," *Foreign Policy Analysis*, vol. 17, no. 4 (2021).

5 "المعارضة السورية المسلحة تسقط نظام بشار الأسد"، يوتيوب، قناة الجزيرة، 2024/12/8، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F37B

6 يوضح مؤلفا الكتاب أنهما قررا الانخراط جديًا مع هيئة تحرير الشام عقب إعلانها فك الارتباط بتنظيم القاعدة عام 2016، وبدء تبنّيها خطابًا وموقفًا أكثر وسطية تجاه مختلف الأطراف، بما في ذلك الغرب. غير أن المبادرة الأولى لهذا الانخراط لم تأتِ من الباحثَين نفسيهما، بل بطلب مباشر من قيادة الهيئة، التي كانت تبحث عن وسطاء قادرين على نقل رسالتها إلى الجمهور الغربي. وقد شكل هذا التطور أهمية خاصة لجيرومي، بحكم تخصصه في دراسة الجماعات الجهادية، ولباتريك، المعني بالإسلام السياسي؛ إذ أتاح لهما وصولًا غير مسبوق إلى الشرع والدائرة القيادية الضيقة المحيطة به. وتضم هذه الدائرة علماء دين، وشخصيات سياسية، وقيادات عسكرية من الصف الأول. وخلال فترة امتدت نحو خمس سنوات، يشير الباحثان إلى تطور علاقة مستمرة وعميقة بالهيئة، تناولت نقاشات موسعة حول قضايا متعددة، من بينها الأبعاد الجيوسياسية، واللاهوت السياسي Political Theology، والأقليات الدينية، والتطورات العسكرية. وقد أتاح هذا الانخراط للباحثين نفاذًا مباشرًا إلى قيادات الهيئة، في إطار مكّن هذه القيادات من مناقشة تحولاتهم الفكرية والسياسية ورؤيتهم لمسارهم المستقبلي.

7 يذكر المؤلفان الاسم الصريح لأحمد الشرع خلال كل فصول الكتاب.

8 فيما يتعلق بالعمل الميداني، يشير مؤلفا الكتاب إلى وجود عدد من الجوانب الرئيسة التي ظلت غامضة بالنسبة إليهما، من بينها نظام العدالة الرسمي، والأحكام الصادرة عن الأجهزة الأمنية، ولا سيما جهاز الأمن التابع للهيئة، وذلك نتيجة صعوبة الوصول إلى هذه البنى. ويعزوان هذا الغموض جزئيًا إلى تحيزٍ معرفي في مقاربتهما البحثية، يتمثل في تركيزهما على تحولات الهيئة ضمن إطار ديني – سياسي، على حساب مقاربة أكثر تفصيلًا للبنى الأمنية.

لم تعد تسعى للبقاء في الصراع المسلّح فحسب، بل صارت تسعى أيضًا لبناء حكم بديل، عبر اكتساب "شرعية" محلية وسياسية، وإدارة شؤون المدنيين، وهو ما يستدعي تحليلًا دقيقًا لهذه التحولات: كيف حدثت؟ وما حدودها؟ أتعدّ تغييرًا حقيقيًا أم مناورة تكتيكية؟

أما فيما يتعلق بمضامين الكتاب، فيركز الفصل الأول على الأيام الأولى لتأسيس جبهة النصرة، وعلى تكيّفها مع الديناميات المتطورة للنزاع السوري وتدخّل الدول الأجنبية، وتفاعل الجبهة مع الجماعات الأخرى، ولا سيما القتال ضد تنظيم "داعش"، إضافة إلى الحلفاء والمعارضين، وكذلك الضغوط التي دفعت جبهة النصرة إلى الانفصال عن تنظيم القاعدة وتغيير اسمها إلى "جبهة فتح الشام"، ومن ثم قيادة التحول إلى المشروع الجديد باسم هيئة تحرير الشام.

ويبحث الفصل الثاني في الكيفية التي استغلت بها الهيئة مفهومَي الحكم والحوكمة وأدواتهما لتأكيد سيطرتها على شمال غرب سورية، وإعادة هيكلة نفسها، وكيفية توطيد سلطتها من خلال السيطرة على مجموعات أخرى من فصائل المعارضة المسلحة والعديد من المقاتلين الجهاديين الذين لديهم ارتباطات بتنظيم القاعدة، والتي اختارت الهيئة مواجهتهم في مناطق سيطرتها في إدلب.

أما الفصل الثالث، فيناقش تأثير حكم الهيئة في إدلب في رسم سياسة مشروعها الجديد[9]. فعلى الصعيد الخارجي، تكيفت مع المصالح الاستراتيجية التركية، بما في ذلك الانخراط في العملية السياسية التركية - الروسية المتعلقة بسورية. أما على الصعيد الداخلي، فقد اضطرت إلى إصلاح هياكل السلطة داخلها، وترقية جيل جديد من التكنوقراط ضمن بنيتها التنظيمية.

ويناقش الفصل الرابع ابتعادها عن الفكر الجهادي السلفي، بعد قطع العلاقات بالقاعدة، وتهميش المتشددين الدينيين لديها من خلال عملية متدرجة على نحو مؤسساتي متوازن. ويحلل الفصل الخامس ابتعادها عن السلفية، وإعادة تعريف دور الإسلام في الحكم، فبدلًا من السعي لتحقيق هدف أسلمة المجتمع، تبنّت نهجًا قائمًا على السياسات العامة التي تسترشد بالشريعة، وهو ما يُعرف بالسياسة الشرعية، وذلك من أجل إضفاء الشرعية على حكمها وممارسة السيطرة على مسألة إصدار الفتاوى الدينية.

ويتناول الفصلان السادس والسابع علاقة الهيئة بالتيار الإسلامي السائد في إدلب، إضافة إلى تفاعلاتها مع الأقليات الدينية، ففي كلتا الحالتين هدفت إلى الهيمنة والسيطرة. ويركز الفصل السادس على بنائها قنوات تواصل مع الصوفيين، بوصف ذلك خيارًا استراتيجيًا قائمًا على استمالة ما يُعرف بالأغلبية الصامتة في المجتمع مثل الصوفية والأشعرية[10]، الذين لا يشكلون تهديدًا مباشرًا لها. وقد أسهم هذا التوجه في تحقيق توازن داخلي، يتيح لها تشكيل ثقلٍ مضاد لمواجهة التيارات السلفية الأكثر تشددًا في المجال الديني. أما الفصل السابع، فيناقش تواصل الهيئة مع الأقليات الدينية، على الرغم من التوترات بينهما خلال مرحلة جبهة النصرة، وهذا خدم طموحها في ترسيخ موقعها قوةً مهيمنة داخل صفوف المعارضة السورية، وأسهم في تعزيز صورتها بصفتها جهة فاعلة تسعى إلى تشكيل دولة.

ويحلل الفصل الثامن تطورها من خلال رسم مخطط لإعادة تبنّيها الاستراتيجي للثورة واحتكارها تمثيل الثورة. وتراجع استخدام القوة المفرطة تجاه الناشطين الثوريين، بالتوازي مع تنامي تقبّل هؤلاء الناشطين لهيمنة الهيئة على المجال الثوري. ويدرس الفصل التاسع الاحتجاجات الشعبية ضد الهيئة عام 2024، ورد فعلها عليها، بما في ذلك استراتيجياتها لإدارة هذه الاحتجاجات، من خلال تحليل الإصلاحات التي أعلنتها، مثل فتح المجال أمام الانتخابات مع إبقائها تحت رقابتها، إضافةً إلى تمكين المجالس المحلية.

ويركز الفصل العاشر على تخليها تدريجيًا عن التطبيق الصارم للأنظمة الدينية، ووقفها عددًا من المطالبات لتعزيز الرقابة الأخلاقية أو ما يُعرف بـ "قانون الأخلاق العامة"، بهدف تجنب أي رد فعل دولي ضدها. وأدارت الهيئة هذه العملية بقدرٍ عالٍ من التوازن والدقة، انطلاقًا من توجه سياسي مباشر أكثر من الانطلاق من اعتبارات أيديولوجية. ويصف المؤلفان هذا المسار بأنه عملية مد وجزر، ويطلقان عليها مصطلح "نزع التطرف من الأعلى"، التي أصبحت أكثر وضوحًا بعد سيطرة الهيئة على دمشق في كانون الأول/ ديسمبر 2024.

ويتناول الفصل الحادي عشر بعدًا أنطولوجيًا أوسع لشرح الغاية الأيديولوجية للهيئة، ومحاولة مقاربة تعريف هويتها الراهنة. وانطلاقًا من ذلك، يجادلان في أن دراسة مسار تحولات الهيئة وفحص ديناميات الداخلية تقدّم رؤية أكثر عمقًا وأهمية من السعي لتثبيت هوية نهائية لها، أو محاولة حصرها في قوالب جاهزة وتعريفات نمطية لسياسات الإسلام الحديث. أما الفصل الثاني عشر (الأخير)، فيقدم استنتاجًا رئيسًا فيما يتعلق بهوية الهيئة، إضافة إلى ملاحظات واستنتاجات عامة وحالات مقارنة بغيرها من الحركات الجهادية، ويرى أنها قادت عملية التحول هذه بأفعال مؤسساتية متوازنة ومتدرجة ومن موقع قوة.

---

9 لا يُقصَد بتعبير مشروع "هيئة تحرير الشام" وجود أهداف أيديولوجية أو دينية أو عقائدية، وإنما المقصود به "الثورة الصامتة" كما يسميها المؤلفان، والتي جرت من خلال عملية نزع التطرف والقضاء على المجموعات المرتبطة بتنظيم القاعدة وتنظيم داعش.

10 الأشعرية أو الأشاعرة، وهو الاسم الذي يُطلَق على أتباع مدرسة أبي الحسن الأشعري الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري (260-324هـ).

لا يمكن لهذه المراجعة أن تغطي التفاصيل كافةً في الكتاب، لهذا تقتصر على ست ركائز رئيسة، تتقاطع مع أطروحته المركزية، فهو ينطلق من فكرة أن الانتصار العسكري الذي تحقق في 8 كانون الأول/ ديسمبر 2024 لا يمكن النظر إليه بوصفه انتصارًا عسكريًا فحسب؛ إذ يكمن أساسه في التحول الفكري والأيديولوجي العميق الذي شهدته الهيئة في السنوات الأخيرة، والذي مكّنها من تشكيل تحالفات حاسمة وتأمين بعض الشرعية المحلية وتنمية روابط دولية أساسية.

ويُطلق المؤلفان على عملية التحول هذه اسم الثورة الصامتة أو تفكيك التطرف Deradicalization، وهو مفهوم أكاديمي يشير إلى فكرة تغيير القناعات الفكرية والسلوكية للأفراد أو الجماعات المتشددة لتصحيح الأفكار وبناء هوية جديدة[11]. وقد حصلت هذه الثورة الصامتة لتفكيك التطرف التي قادتها الهيئة من الأعلى إلى الأسفل في إدلب بين عامَي 2016 و2024. وتختلف هذه الثورة عن مسارات سابقة شهدتها حركات جهادية في مصر أو ليبيا، حيث جاءت المراجعات الفكرية والعقائدية هناك عقب الفشل في تحقيق الأهداف المعلنة، وفي موقع ضعف وتعرّض معظم القيادات للسجن. وعلى النقيض من ذلك، قادت الهيئة عملية التحول هذه من موقع قوة (ص 4).

أولًا: من جبهة النصرة إلى هيئة تحرير الشام: ديناميات التحول التنظيمي والفكري والهوياتي

ظهرت جبهة النصرة في سورية في سياق العمل العسكري المسلح، الذي جاء بعد مرحلة الاحتجاجات السلمية التي رافقت بدايات الثورة في سورية (ص 19)، وجاءت فكرة التأسيس بناء على مقترح تقدَّم به زعيمها أحمد الشرع، المعروف حينها باسم أبو محمد الجولاني، إلى قادة "دولة العراق الإسلامية"، وذلك عندما كان الجميع في السجن في العراق (ص 20).

وبعد فترة قصيرة من دخول الجولاني إلى العراق، وقبل انفجار ما يُعرَف بالحرب الطائفية عام 2006، اعتُقِل مدة خمس سنوات، وسُجِن في سجن أبو غريب، الذي كان تحت سيطرة الجيش الأميركي (ص 20). ولكن خلال فترة وجوده في السجن، حدثت خلافات عديدة بينه وبين قيادات دولة العراق الإسلامية، حول طريقة تعامل المجموعات الجهادية مع محيطها (ص 21). ويقول في هذا السياق: "بعد الغزو الأميركي للعراق، كانت هناك معارضة شعبية كبيرة للغزو الأميركي. تفكيرنا كان بسيطًا، وقد ذهبنا للقتال هناك. لم نكن مدركين أو واعين كما نحن اليوم. لقد تفاجأنا بالتطرف الأيديولوجي الذي نشأ في السجون العراقية، ما يُعرف بثقافة التطرف والغلو"[12] (ص 20).

أما عن العلاقة بتنظيم دولة العراق الإسلامية، فينطلق المؤلفان من فكرة مخالفة للافتراض السائد بأن جبهة النصرة كانت مرتبطة عضويًا وأيديولوجيًا بهذا التنظيم[13] (ص 22)، فمنذ البدايات الأولى لتشكيل الجبهة، لم يكن تنظيم الدولة يمتلك سيطرة كاملة عليها؛ إذ اقتصر دور ما يسمى "التنظيم العراقي" على الموافقة على مقترح تأسيس الجبهة، من دون أن تتوافر له أدوات فعلية لفرض أفكاره على الجولاني بعد انتقاله إلى سورية.

وظهر الخلاف بوضوح عندما أعلن أبو بكر البغدادي في 9 نيسان/ أبريل 2013 عن اندماج جبهة النصرة ودولة العراق الإسلامية في تشكيل جديد أسماه الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش"[14]، وردّ الجولاني عليه سريعًا في كلمة مسجلة نفى فيها علمه بقرار البغدادي إعلان الدولة، ورفض هذا الإعلان، وقال إنه يستجيب للدعوة عبر "الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى"؛ أي إعلان البيعة لزعيم تنظيم القاعدة أيمن الظواهري[15]، الذي طُلب منه التدخّل للتحكيم

11 Joel Busher, Leena Malkki & Sarah Marsden, (eds.), *The Routledge Handbook on Radicalisation and Countering Radicalisation* (London: Routledge, 2023).

12 على الرغم من أن جبهة النصرة تدافع عن فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية، وتستنكر تكوين النظام السوري الطائفي المستند إلى العصبية العلوية، فإن جبهة النصرة كانت أشد حذرًا في خطابها من تنظيم "دولة العراق الإسلامية"، حيث إن الأخير يتعامل مع المسلمين الذين لا يلتزمون بتفسيراته للإسلام على أنهم مرتدون (ص 26)، بينما كان انتقاد جبهة النصرة للعلويين قائمًا على الدمج بين البعدَين الديني والسياسي. وفي مقابلة للشرع مع قناة الجزيرة، يقول: "إن العلويين بعد كل ما فعلوه من مجازر بحقنا، ديننا دين رحمة، ونحن لسنا مجرمين قتلة، نحن نقاتل من يقاتلنا، نحن نقف في وجه الظلم. وكذلك بالنسبة للعلويين، إن بيّنا لهم أسباب أخطائهم وخروجهم عن دينهم، وتراجعوا عن هذا الأمر وألقوا السلاح وتبرؤوا من أفعال بشار الأسد، فهم إن فعلوا ذلك، لن يكونوا فقط في مأمن منا، بل نحن من سيتولى حمايتهم والدفاع عنهم". ينظر: "بلا حدود | أبو محمد الجولاني.. استراتيجية نشأة جيش الفتح ومهمة جبهة النصرة في سوريا (1)"، يوتيوب، قناة الجزيرة، 2015/5/27، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2Z7

13 لم يكن التنافس بين تنظيم الدولة وجبهة النصرة مُعلَنًا. ويمكن تلخيص أسباب الخلافات التي ظهرت في البداية بين الطرفَين فيما يأتي: أولًا، تساهل جبهة النصرة مع المدنيين، وهو ما ترفضه قيادات تنظيم الدولة في العراق. ثانيًا، رفض الشرع ورفاقه أوامر لتنفيذ هجمات انتحارية ضد مدنيين، وهو ما قام به التنظيم في العراق. ثالثًا، رفض الشرع مهاجمة المعارضة في تركيا – إسطنبول بناءً على طلب تنظيم الدولة (ص 23-24). وبحسب العديد من الشهادات التي جمعها المؤلفان، فإن الشرع منذ البداية رفض الانصياع لرؤية البغدادي للجهاد العالمي واستهداف المدنيين، حتى إن الأخير أرسل ستة من القيادات المقربة منه لإقناعه بذلك، وهو ما رفضه الشرع باستمرار سواء فيما يتعلق بالهجمات الخارجية أو فيما يتعلق باستهداف المدنيين بناءً على انتمائهم الديني (ص 24-25).

14 حمزة المصطفى، "جبهة النصرة لأهل الشام من التأسيس إلى الانقسام"، **سياسات عربية**، مج 1، العدد 5 (تشرين الثاني/ نوفمبر) 2013.

15 بعد إعلان جبهة النصرة بيعتها لتنظيم القاعدة في نيسان/ أبريل 2013، تغيّر المزاج الدولي تجاهها. وعلى إثر ذلك، صنّفتها الولايات المتحدة الأميركية ودول الاتحاد الأوروبي على قوائم الإرهاب. وأصدر مجلس الأمن القرار رقم 1267 القاضي بتصنيفها على قوائم الإرهاب. وانعكس الضغط الدولي على أرض الواقع؛ ما دفع جبهة النصرة إلى مهاجمة بعض فصائل الجيش الحر وتفكيكها، لا سيما حركة حزم والفرقة 13 وجبهة ثوار سورية بقيادة جمال معروف (ص 39).

بين الطـرفين[16]. وعلى إثر ذلك، قرر الظواهري التدخّل وفصل المجموعتين إحداهما عن الأخرى (ص 32)[17]، إلا أن التنظيم العراقي بقيادة البغدادي رفض هذا القرار ولم يعترف به.

ينقل مؤلفا الكتاب عن الجولاني، الذي تحدّث لهم عن لحظة الانفصال: "عندما انفصلنا عن البغدادي، لم يكن لدينا أي خيار جيد، كنا ذاهبين ليتم تدميرنا بشكل كامل من قبلهم. لذلك جمعتُ مجموعتي الضيقة، واتخذنا قرارًا سريعًا، أخبرتهم أننا ذاهبون لمبايعة تنظيم القاعدة. بعضهم نصحني بعدم فعل ذلك، ووصفوه بالقرار الانتحاري. ولكنهم لم يعطوني أي خيار بديل، لم يكن لدينا أي قرار غير مبايعة القاعدة من أجل عدم خسارة جميع المقاتلين وبالتالي ذهابهم إلى داعش" (ص 32).

قاد تنظيم داعش حربًا شرسة ضد جبهة النصرة، انتهت بالقضاء عليها بعد السيطرة على محافظة دير الزور، ليعلن بعدها البغدادي قيام "الدولة الإسلامية"، بعد أن سيطر على مناطق شاسعة من سورية والعراق[18]. وبعد انتقال الجبهة إلى الشمال السوري[19]، وبدء التدخل العسكري الروسي في سورية عام 2015 وتوالي تراجع المعارضة السورية، بدأ الحديث عن فكرة توحيد الفصائل، ولكن برزت مشكلة ارتباط الجبهة بتنظيم القاعدة، لذلك كان لا بد من فك الارتباط. وفي خطاب إعلان فك الارتباط بالقاعدة، ظهر الجولاني أول مرة بصورته المباشرة، وأعلن تأسيس "جبهة فتح الشام"، وذلك في تموز/ يوليو 2016[20]، وأرسل رسالة جديدة مفادها أن الجماعة تركز على الصراع السوري[21]، على الرغم من أن النصرة لم تهددهم على نحو مباشر من قبل (ص 100).

16 المصطفى.

17 "لقاء اليوم | قائد جبهة النصرة: لن نقبل بأي مسار سياسي يحيي نظام بشار على حساب آلام الشعب وتضحياته"، يوتيوب، قناة الجزيرة، 2013/12/19، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2xP

18 محمود الحسين، "أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري ... دير الزور أنموذجًا"، مجلة **قلمون**، العددان 19-20 (تموز/ يوليو 2022).

19 قاد تنظيم داعش حربًا شرسة ضد جبهة النصرة، بدأت من محافظة الرقة السورية، ثم في اتجاه محافظة دير الزور، واستمر القتال مع مجتمعها المحلي وفصائلها العسكرية بدءًا من أواخر عام 2013 حتى منتصف عام 2014، وانتهت الحرب بالسيطرة على دير الزور، ليعلن بعدها البغدادي قيام دولة الخلافة الإسلامية، بعد أن سيطر على مناطق شاسعة من سورية والعراق.

20 للمزيد عن "جبهة فتح الشام"، ينظر: "جبهة فتح الشام"، الذاكرة السورية، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F3cw

21 عندما انفصلت جبهة النصرة عن تنظيم القاعدة، دار جدل كبير بين فريقين؛ الفريق الأول يرى أن ذلك مناورة تكتيكية من جبهة النصرة لكسب الشرعية. والفريق الثاني يرى أنها تخلّت عن القاعدة بصدق. ولكن التطورات اللاحقة أظهرت أن الشرع لم يكن يخدع الدول الغربية لإقناعها بأنه قطع علاقاته مع تنظيم القاعدة، بل كان يخدع تنظيم القاعدة نفسه، حيث كانت نيته الأساسية هي الحصول على موافقة القاعدة بقطع العلاقات معها علنًا لتجنب الانشقاق الداخلي من القادة الداخليين الذين ظلوا ملتزمين بالتنظيم (ص 44).

وبعد قطع العلاقات بالقاعدة، قادت جبهة فتح الشام مسارًا جديدًا أفضى إلى ظهور هيئة تحرير الشام في 28 كانون الثاني/ يناير 2017[22]. وبعد مواجهات عسكرية مع حركة أحرار الشام استمرت عامَين، سيطرت الهيئة على إدلب في كانون الثاني/ يناير 2019 (ص 49-50).

ثانيًا: مشروع هيئة تحرير الشام الجديد: الهيمنة وتفكيك التطرف

مع بسط الهيئة نفوذها على الشمال السوري، بدأ الانهيار شبه الوشيك لفصائل المعارضة السورية مع بدايات عام 2020؛ إذ شنّ النظام السوري، بدعم روسي – إيراني، هجومًا شرسًا على المعقل الأخير للمعارضة السورية؛ ما أدى إلى خسارة أكثر من 40 في المئة من المساحة التي كانت تسيطر عليها. ولم يوقف هجوم النظام إلا التدخّل العسكري التركي باسم عملية "درع الربيع"[23]، وعلى إثرها، وُقِّع اتفاق وقف إطلاق النار بين الرئيسَين التركي والروسي في آذار/ مارس 2020 (ص 51).

وشكّلت الخسارة الأخيرة صدمة لدى جميع فصائل المعارضة السورية، التي توصلت إلى أن استمرار التشرذم ينعكس سلبيًا على أدائها عسكريًا (ص 52). ومن هنا، برزت فكرة العمل الجماعي الموحّد على نحو حقيقي، من خلال تشكيل غرفة عمليات الفتح المبين، وهي إطار عسكري يضمّ جميع الفصائل ضمن هيكل موحّد، ويشمل التخصصات القتالية اللازمـة، من المشاة والقناصة إلى الدبابات والمدفعية (ص 52).

ومع انتهاء فكرة توحّد الفصائل المسلحة، بقي هنالك أفراد ومجموعات في إدلب يعارضون الجولاني لثلاثة أسباب رئيسة، وهي: أولًا، اعتقادهم أن فك الارتباط بالقاعدة "خيانة" للجهاد العالمي. ثانيًا، رفضهم تعاون الهيئة مع تركيا، التي يعتبرونها دولةً "مرتدة" وعضوًا في حلف شمال الأطلسي "الناتو". ثالثًا، قبول الهيئة بالهدنة الروسية - التركية، التي أعقبها قبول الدوريات المشتركة الروسية - التركية على الطريق السريع M4، وهو الطريق الدولي الذي يربط الساحل السوري بإدلب وحلب والرقة وصولًا إلى الحسكة (ص 55).

وفقًا لذلك، اتبعت الهيئة سياسة الاحتواء في المجالَين الاقتصادي والسياسي، قبل أن تنتقل إلى الخيار العسكري في مواجهة الفصائل

22 للمزيد عن هيئة تحرير الشام، ينظر: "هيئة تحرير الشام"، الذاكرة السورية، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2Ra

23 "'درع الربيع': معركة الحفاظ على الدور التركي في سوريا"، **تقدير موقف**، مركز الجزيرة للدراسات، 2020/3/4، شوهد في 2026/2/23، في: https://cutt.ly/UtWRtZZD

المرتبطة بالقاعدة، مثل فصيل "حراس الدين"[24]. ولكن هذا الفصيل أصبح يمثّل تهديدًا أمنيًا للهيئة[25]؛ ما دفعها إلى شنّ حملة عسكرية ضده في صيف 2020 انتهت بالقضاء عليه (ص 57-59). ومع تفكيك هذا الفصيل، خرجت الهيئة أكثر تماسكًا مما كانت عليه سابقًا، وذلك لعدة أسباب؛ أولًا، للمرة الأولى منذ 9 سنوات لم يعد هنالك أي وجود عسكري نشط لتنظيم القاعدة في معقل الهيئة. ثانيًا، انضمام الحزب التركستاني والمقاتلين الشيشان إلى الرؤية الجديدة للهيئة. ثالثًا، إنشاء جهاز الأمن العام الذي ضم وحدتَين متخصّصتين تركزان على مكافحة الإرهاب؛ الأولى، مخصصة لتتبع خلايا تنظيم القاعدة، والثانية تتعقّب خلايا داعش (ص 59-60).

أما حرب الهيئة على خلايا تنظيم داعش، فقد حدثت على مرحلتَين؛ الأولى في تشرين الأول/ أكتوبر 2017، حين حاصرت قوات النظام السوري عناصر من التنظيم في ريف حماة، قبل أن يفتح النظام ممرًا آمنًا لمئات من مقاتلي التنظيم، مع أسلحتهم، للانتقال إلى إدلب. وعلى إثر ذلك، قررت الهيئة مهاجمتهم، وتمكنت من القضاء عليهم بسهولة نسبيًا (ص 61). أما الثانية، فتمثلت في دخول بعض عناصر التنظيم وقياداته إلى إدلب عام 2019، بتسهيل من النظام السوري وقوات سوريا الديمقراطية، التي فتحت لهم المجال خلال عمليات التحالف الدولي ضد التنظيم في آخر معاقله في الباغوز على الحدود السورية – العراقية (ص 61).

ثم يناقش مؤلفا الكتاب استراتيجية الهيئة وأدواتها فيما يصفانه بـ "تفكيك التطرف"، والتي يمكن عرضها على النحو الآتي:

أ. على مستوى السياسة الأمنية، بدأت الهيئة في شن حملات مكثفة ضد خلايا تنظيم داعش؛ إذ نفّذت اعتقالات واسعة ومداهمات أفضت إلى تفكيك شبكات مهمة. وقد ساعد في ذلك معرفتها العميقة بالبنية الجهادية القديمة، وهو ما مكّنها من اعتقال ولاة وقادة بارزين. وتُبرز الأمثلة الواردة تفكيكهم لمكتب "الهجرة" الذي كان يخطط لعمليات خارجية، وهو ما تزامن مع تراجع شبه كامل لقدرة تنظيم داعش على تنفيذ هجمات داخل المنطقة أو خارجها (ص 61-63).

ب. إعادة هندسة الفضاء العام دينيًا، فقد أدركت الهيئة أن تفكيك الفكر الجهادي لا يقل أهمية عن تفكيك الخلايا الميدانية؛ لذا ركّزت على هندسة الخطاب الديني، وتدريب الشرعيين والقضاة، ومراقبة خطب المساجد، ومنع ممارسات التكفير. وقد قدمت مشروعًا "إسلاميًا بديلًا" قادرًا على احتواء الشباب والتقليل من جاذبية تنظيم داعش (ص 64-65).

ج. احتواء المقاتلين الأجانب، فقد بقيت معظم المجموعات في إدلب غير منخرطة في داعش ومندمجة جزئيًا في الفصائل المحلية. وقد اعتمدت الهيئة سياسة "الاحتواء المشروط"، التي تقوم على احترام القوانين والانضباط بالعمل العسكري المشترك مقابل السماح لهم بالبقاء. وكان المثال الأكثر وضوحًا على ذلك هو الحزب الإسلامي التركستاني، الذي سمحت له بالبقاء مقابل الالتزام بالسياسة الجديدة (ص 65).

اعتمدت الهيئة على تيارات صامتة في إدلب. وكان الرهان على ما يسمى بالأغلبية الصامتة داخل المجتمع المحلي، وهي التي يُشار إليها غالبًا باسم التدين الشعبي، ولا سيما التيار الصوفي. وهدف هذه السياسة هو استراتيجي سياسي يهدف إلى الانخراط في التيار الصوفي والاستفادة منه بصفته موازنًا للتيار السلفي (ص 141). فبعد أن ضيّق التيار الجهادي السلفي سابقًا المجال على جماعات الصوفية (ص 145)، أعادت الهيئة تقييم سياستها حيالهم، فعملت على تيسير عودتهم ضمن استراتيجية سياسية تقوم على الاعتماد على ما يسمّى بالأغلبية الصامتة وتعزيز موقعها بالاستناد إليها (ص 147، 148، 152).

د. مثّل تبنّي المذاهب الفقهية التقليدية (على سبيل المثال، المذهب الشافعي) تحوّلًا مقصودًا بهدف ترسيخ جذور محلية عميقة في المجتمع المحلي، وبناء شرعية محلية بديلة من مرجعية القاعدة. وقد كان اختيار المذهب الشافعي مدروسًا؛ إذ إنه يمثّل المذهب الأقرب إلى الموروث الديني للسكان في إدلب؛ ما يجعل التحوّل جزءًا من استراتيجية "السياسة الشرعية" لضمان القبول الشعبي.

هـ. أعادت الهيئة بناء برامجها التدريبية الأيديولوجية بصورة جذرية، فقد أوقفت منذ عام 2016 تدريس نصوص الجهاد العالمية في معسكراتها التدريبية، بما فيها أعمال أبو محمد المقدسي وأبو قتادة الفلسطيني، بل حظرتها، وبهذا أغلقت الباب أمام السردية الجهادية العابرة للحدود، واعتمدت بدلًا من ذلك موادّ تعليمية ترتكز على الفقه الشافعي، والأربعين النووية، وكتب قدّمت العقيدة الدينية بإيجاز (ص 111)،

24 فصيل عسكري، تأسس في شباط/ فبراير 2018، وضمّ معظم قيادات جبهة النصرة السابقين الرافضين فكرة الانفصال عن القاعدة. وهم مزيج من المقاتلين السوريين والأردنيين، ومقاتلين أجانب آخرين، لديهم علاقات وثيقة مع القيادة المركزية لتنظيم القاعدة، مثل أبو عبد الكريم المصري، وسامي العريدي المقرب من أبو محمد المقدسي، وهو المنظّر الجهادي المقيم في الأردن (ص 55).

25 في آذار/ مارس 2019، وُضعت شروط صارمة على هذا التنظيم، أبرزها ضرورة نبذ العمليات الجهادية العالمية خارج سورية، وحلّ المحاكم الشرعية والامتناع عن التدخل في الشؤون المدنية (ص 56). ولكن الهجوم العسكري الذي شنّه تنظيم حراس الدين ضد قوات النظام السوري في إحدى قرى سهل الغاب في أيار/ مايو 2019، أعطى مؤشرًا دالًّا على أن هذا التنظيم أصبح تهديدًا أمنيًا للهيئة.

وأنشأت معهد إعداد الدعاة لتخريج خطباء المساجد، وأصبح بإشراف كلية الشريعة في جامعة إدلب[26] (ص 110).

و. أدت المؤسسات الدينية دورًا بارزًا في إضفاء عملية المأسسة على عملية نزع التطرف، لا سيما كلية الشريعة في جامعة إدلب، والمجلس الأعلى للإفتاء، ووزارة التعليم ومعهد التدريب القضائي. على سبيل المثال، ركزت كلية الشريعة على إلغاء مفهوم "التكفير" وحظره خارج اختصاص مجلس الإفتاء (ص 120). وأدرجت في معسكراتها التدريبية قسمًا خاصًا بعنوان "التحذير من التطرف" لتوجيه عناصرها نحو نهج محلي أكثر (ص 103). وقد قال الشرع في كانون الأول/ ديسمبر 2013: "إن التكفير له ضوابط شرعية، ونحن ننكر على كل من يغلو في تكفير الأفراد والمجتمعات"[27].

ثالثًا: دور الهيمنة العسكرية في انتعاش الحوكمة وولادة حكومة الإنقاذ

لم تخدم فكرة إضفاء الطابع المؤسسي لدى الهيئة هدف تحقيق الاستقرار وتوحيد المحافظة في ظل نفوذ قوى إقليمية مثل تركيا فحسب، بل سهّلت أيضًا عن غير قصد ظهور طبقة سياسية محافظة أنتجت جيلًا جديدًا من التكنوقراط الذين أصبحت أهميتهم أكثر وضوحًا بعد السيطرة على دمشق عام 2024 (ص 71).

يجادل مؤلفا الكتاب في أن لفرض الهيئة نفوذها العسكري دورًا بارزًا في تقديم نموذج حكم "مدني" باسم حكومة الإنقاذ؛ فقبل أن تفرض سيطرتها العسكرية على شمال غرب سورية، شهدت المنطقة العديد من المبادرات التي تهدف إلى حوكمة موحدة للمنطقة، ومع وجود فصائل وتيارات متنافسة لم تتحقق أيٌّ من هذه المبادرات. ولذلك، فتحت هيمنة الهيئة الكاملة على المنطقة الباب أمام الطبقة الأكاديمية المتعلمة لقيادة المبادرة والدعوة إلى إنشاء حكومة الإنقاذ في أواخر عام 2017. ومن باب المفارقة، فإن هذه الطبقة الأكاديمية لا ترتبط تنظيميًا بالهيئة، بل على العكس هم من المستقلين المحافظين الذين لا يبدون أيّ معارضة تجاه هيئة تحرير الشام، ولكنهم شعروا بالتهميش والإقصاء من حكومة الائتلاف – السورية المؤقتة، وهو ما استغلته الهيئة، فوفرت لهم مساحة وهامشًا للتحرك (ص 72).

وبما أن إدارة منطقة سكانية مكتظة بالسكان، يقطنها نحو 3.5 ملايين نسمة، تتطلب موارد كافية وهو ما لا تمتلكه الهيئة، فقد اتبعت ثلاث آليات رئيسة لتمكين عمل حكومة الإنقاذ، وهي على النحو الآتي:

أ. مركزية جميع هياكل الحكم: مع سيطرة الهيئة عسكريًا على المحافظة، استولت على جميع البنى الحكومية، مثل المحاكم الفصائلية واحتفظت بموظفي المحاكم ونقلت الأرشيف إلى وزارة العدل، كما سلمت مديرية المخيمات والنازحين إلى وزارة الشؤون الإنسانية، وعملت على السيطرة على المجالس المحلية (ص 72–74).

ب. تفويض السلطة جزئيًا إلى نخبة مدنية متعلمة: لم تتبنّ الهيئة شكل الهيمنة المطلق والسيطرة اليومية، حيث وافقت على تفويض السلطة إلى شرائح من النخبة المتعلمة، وكان هذا خيارًا واقعيًا فرضته ندرة الموارد، وهو ما سمح ببروز طبقة جديدة (تكنوقراط) (ص 75). وهذه الطبقة حاصلة على تعليم جامعي غالبًا، وتتجنب الخطاب الأيديولوجي، وتركز على الحلول العملية لتحديات الحوكمة ومشاكلها اليومية (ص 95).

ج. الاعتماد على مصادر خارجية وأطراف ثالثة مستقلة لتقديم الخدمات العامة خارج أطرها الإدارية: لم يكن لدى حكومة الإنقاذ الموارد المالية اللازمة لتقديم الجوانب الخدمية؛ لذلك اعتمدت على المنظمات الدولية. على سبيل المثال، في قطاع التعليم كانت وزارة التعليم التابعة لحكومة الإنقاذ قائمة، لكنها لم تدفع سوى رواتب الموظفين الإداريين، ولم يكن لديها معلمون على كشوف رواتبها، حيث نسقت مع نحو 20 منظمة تعليمية محلية ودولية لتقديم الخدمات التعليمية. وكذلك أدارت المنظمات الدولية غير الحكومية قطاع الصحة بالتعاون مع شركائها المحليين (ص 76).

وقبيل انطلاق عملية ردع العدوان، واجهت الهيئة أزمتَين حادّتَين؛ الأولى، أزمة داخلية ضمن صفوفها، في النصف الثاني من عام 2023، فقد شكّت في أن بعض كوادرها يتعاونون مع التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ضد تنظيم الدولة الإسلامية، ولذلك

---

26 ولّدت هذه التغييرات بيئة تعليمية وسياسية تبرّر لعناصر الهيئة عملية الانخراط في علاقات مع تركيا والأمم المتحدة والمؤسسات البحثية والإعلامية، وتتعامل مع قضايا مثل الكنائس والأقليات والعلاقات الدولية من منظور "فقه الواقع المعاصر" بدلًا من "فقه الجهاد"، وعلى الرغم من مقاومة بعض القياديين على المستوى المتوسط لهذا التوجّه، أدركت قيادة الهيئة ضرورة إعادة صياغة المناهج الدراسية والتعليمية لضمان الاتساق مع المسار السياسي الجديد، وهو ما اعترف به نائب عميد كلية الشريعة لمؤلفَي الكتاب، فـ "الجيل الأول الذي كان يتبع دورات تدريبية لدى النصرة كان أكثر تشددًا" (ص 113).

27 "لقاء اليوم | قائد جبهة النصرة: لن نقبل بأي مسار سياسي يحيي نظام بشار على حساب آلام الشعب وتضحياته".

شنّت حملة اعتقالات[28] (ص 200). أما الثانية، فقد كانت في الفترة آذار/ مارس - آب/ أغسطس 2024، حيث واجهت مجموعة من الاحتجاجات المناهضة لها. وإثر ذلك، بدأت مجموعة من الجهات الفاعلة محليًا في التنديد علنًا بسياسة الهيئة معترضةً على الحريات السياسية وحقوق الإنسان واحتكار السلطة والاقتصاد في إدلب، فضلًا عن الاعتقالات التعسفية والعديد من حالات التعذيب لدى جهاز الأمن العام (ص 197).

رابعًا: إدارة العلاقة بتركيا: نفوذ تركي من دون تبعية كاملة

مع الانتشار العسكري التركي في إدلب[29]، تراجعت استقلالية الهيئة، إلا أنّ الطرفين تشاركا مصلحة استراتيجية، وهي الحفاظ على إدلب منطقةً آمنةً؛ ما يمنع تمدّد الصراع إلى تركيا من جهة، ويتيح للهيئة الصمود وإدارة الحكم المحلي من جهة أخرى. وقد سمح هذا لتركيا بالتعامل مع فاعل واحد مهيمن، على عكس المناطق التي تنتشر فيها فصائل ما يسمى "الجيش الوطني" المدعوم منها. ولذلك، كانت العلاقة بين تركيا والهيئة دينامية غير متماثلة (ص 85). مع ذلك، فإن تقارب المصالح بين الطرفين لم يُلغِ الخلاف، الذي تركّز على ثلاثة ملفات رئيسة، وهي:

أ. ملف الإرهاب المرتبط بالجماعات المصنّفة دوليًا: هو ملف كان ينبغي أن تتعامل معه أنقرة في ظل وجود عدد من الفصائل التي صنّفتها روسيا والمجتمع الدولي منظمات إرهابية، مع الحرص على تجنّب أيّ مواجهة مباشرة معها. وقد سعت تركيا إلى إيجاد شريك محلي قادر على إدارة هذا الملف، كما فعلت في عفرين وشمال حلب. وعلى الرغم من وجود الهيئة ضمن قوائم الإرهاب التركية، فإنها برزت فاعلًا رئيسًا للقيام بهذا الدور لكونها أكثر نفوذًا وقدرة على ضبط الجماعات الأخرى (ص 82).

ب. الدوريات الروسية – التركية المشتركة على الطريق الدولي M4: سعت الهيئة إلى عرقلة هذه الدوريات، واعتمدت على المعارضة الشعبية، مثل اعتصام الكرامة، لتعطيل هذا الاتفاق، وإجبار كل من روسيا وتركيا على إلغائها[30] (ص 82-83).

ج. حاولت الهيئة في حزيران/ يونيو 2022 السيطرة على مناطق تحت سيطرة فصائل الجيش الوطني المدعوم من تركيا، وقد سيطرت على قرية جنديرس[31]، ولكنها تراجعت بسبب الضغط التركي الذي دعا إلى الالتزام بمناطق السيطرة والنفوذ، وكان هذا مدفوعًا بتخوّف الهيئة من تحالف بين الجبهة الشامية وجيش الإسلام (ص 187-188).

خامسًا: العلاقة بالأقليات

يوجد نحو 18 قرية في إدلب من "الأقليات" الدينية (المسيحية والدروز) (ص 162). وخلال سنوات الثورة، هاجر قسم كبير منهم، ومن لم يهاجر، خاصةً من الـدروز[32]، حاول التأقلم مع الوضع الجديد. وفي 10 حزيران/ يونيو 2022، زار الشرع المجتمع الدرزي خلال افتتاح بئر في قرية قلب لوزة، وهو المكان الذي شهد حوادث قتل سابقًا. وكان الهدف من الزيارة إرسال رسالة مباشرة إلى إدلب (ص 163)، فقد دان الشرع ما حدث لهم سابقًا[33]، وقال لهم إن هدف الزيارة ليس سياسيًا، وأكد أن أيّ خدمات تُقدَّم إلى إدلب سيكونون مشمولين بها.

وفي تموز/ يوليو من العام نفسه، زار الشرع مجموعة من كبار الشخصيات الدينية المسيحية، التي بدأت الهيئة في إنشاء علاقات معها عام 2019. وقد عززت سياسة الهيئة الجديدة تجاه المسيحيين الثقةَ خاصةً بعد تنظيم بعض المسائل، مثل إعادة المنازل إلى أصحابها وتقاسم الأرباح من الأراضي الزراعية المملوكة للغائبين والحد من خطاب الكراهية، وهو ما لقي صدًى إيجابيًا لدى الشخصيات المسيحية (ص 165).

ولم تكن هذه الزيارات بهدف الحضور الإعلامي، فقد تبعها خطوات عملية وتحسّن أمني ملحوظ، وإبعاد المقاتلين الذين يسببون إزعاجًا للمدنيين. ويسّرت حكومة الإنقاذ عملية إعادة المنازل إلى أصحابها،

28 بلغ عدد المعتقلين أكثر من 80 شخصًا يعملون في مفاصل مختلفة من الهيئة. ينظر: "تحرير الشام تكتشف خلايا عميلة للتحالف الدولي وأخرى لروسيا تخترق صفوفها"، **تلفزيون سوريا**، 2023/6/27، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2kv

29 في أوائل عام 2020، نشرت تركيا نحو 10000-12000 جنديًا لردع هجوم محتمل من النظام السوري وبدعم جوي من روسيا (ص 78).

30 في أواخر تموز/ يوليو 2020، وبعد التخلص من تنظيم القاعدة، عبرت آخر دورية روسية - تركية مشتركة على الطريق السريع، ثم توقفت بعد ذلك (ص 84).

31 "هيئة تحرير الشام تسيطر على قرية جنديرس بريف عفرين"، **العربي الجديد**، 2022/10/12، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2U6

32 بعد سيطرة جبهة النصرة على جبل السماق، وعلى الرغم من وجود اتفاق ضمني بين الطرفَين، فإن الحادث الأكثر مأساوية هو مجزرة عين لوزة في جبل السماق في ريف إدلب، حيث هاجم أبو عبد الرحمن التونسي ومجموعته عائلة درزية، وقتلوا نحو 20 شخصًا نتيجة الخلاف على أحد الممتلكات، وردّت جبهة النصرة على ذلك بسجنه عدة أشهر (ص 160). وجرى الاستحواذ على منازل كبيرة من قرى الدروز وإعطاؤها إلى مهاجرين من جبهة النصرة، علمًا أن الأخيرة تقول إنها لا تأخذ إلا المنازل الفارغة (ص 162)، وبقيت الهجرة مستمرة من تلك القرى.

33 "الجولاني يلتقي وجهاء من دروز إدلب"، يوتيوب، دينامية، 2022/6/11، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2ro

ورممت أربع كنائس (ص 166)، وسهلت إعادة افتتاح كنيسة إدلب، وسمحت بالاحتفال بعيد القديس، أول مرة، في آب/ أغسطس 2022.

يتجلّى التحوّل في سياسة الهيئة في التعامل مع المسيحيين والدروز على أساس سياسي لا ديني؛ ما سمح بإيجاد صيغة للتعامل معهم ضمن سياستها الجديدة (ص 170)، أي التعامل معهم وفق مبدأ الدولة الحديثة، بوصفهم مواطنين في الدولة بموجب القانون، وهو نهج علماني. ويقول أحد مستشاري الشرع: "إنه بدل معاملة المسيحيين والدروز كأقليات، وإيجاد تفاسير دينية للتعامل معهم كأهل ذمة، فقد تم التعامل معهم على أنهم يخضعون لحكومة الإنقاذ وبالتالي لهم نفس الحقوق التي يحظى بها الآخرون، أي العمل وبناء الثقة من خلال العمل السياسي" (ص 171).

ومع ذلك، لم يُدْل مجلس الإفتاء برأيه في هذا الموضوع، تفاديًا للانخراط في الجوانب الدينية التي قد تسبب انقسامًا داخليًا. وبدلًا من ذلك، استخدم المفاهيم السياسية المرتبطة تاريخيًا ببناء الدولة الحديثة. وكان الهدف من الانفتاح على الأقليات متوافقًا مع طموحات الهيئة على مستوى سورية بأسرها، وليس في إدلب فقط (ص 172).

سادسًا: هيئة تحرير الشام في دمشق

بعد دخول الهيئة إلى دمشق والسيطرة عليها، كان واضحًا أن الخطة تستند إلى الاستمرار في الاستراتيجية نفسها المعتمَدة في إدلب، القائمة على بناء التحالفات والاعتماد على ما يُعرَف بـ "الأغلبية الصامتة". وبناء على ذلك، جرى التركيز في دمشق وغيرها من مراكز المدن على مراعاة التوازنات الدينية الراسخة، التي شكّلتها عائلات النخبة والتقاليد الإسلامية المتنوعة في هذه المدن. وقد برزت علامات ذلك بوضوح في 6 كانون الثاني/ يناير 2025، في عزاء الشيخ سارية الرفاعي، حين قبّلَ أحمد الشرع رأس الشيخ أسامة الرفاعي، وهو شيخ دمشقي كبير وناقد لسياسة الهيئة سابقًا. لا تمثل هذه الإشارة (تقبيل الرأس) احترامًا لشخصية بارزة في الإسلام الدمشقي فحسب، بل أيضًا اعترافًا ثلاثيًا ضمنيًا بالتراث الإسلامي الدمشقي، وعلماء المعارضة، والتقاليد الدينية للأشعرية (ص 285). وبعد شهرين، عيّن الشرع الشيخ أسامة الرفاعي مفتيًا عامًا للجمهورية العربية السورية مفضّلًا إياه على علماء الدين من هيئة تحرير الشام[34].

يؤكد تشكيل مجلس الإفتاء الجديد نية الانفصال أو القطع مع البعد الأيديولوجي القديم، والرغبة في مواءمة مؤسسات الدولة مع التوجه السنّي السائد، حيث يمثل التكوين الجديد للمجلس ميلًا واضحًا نحو علماء الأشعرية المرتبطين بدوائر أحمد كفتارو والرفاعي؛ إذ يُعدّ أبو الخير شكري، وزير الأوقاف، شخصية تتماشى مع هذا التيار، ولكن أُقصيَ عدد من خطباء المساجد لاعتبارات سياسية، بسبب موالاتهم لنظام الأسد وليس لأسباب دينية أو أيديولوجية (ص 285، 290).

اختُتم الكتاب بالملاحظة الأبــرز، وهــي تعبير "عصر ما بعد الأيديولوجيا"؛ فالموجة الجديدة من عصر ما بعد الأيديولوجيا لا يقودها التيار الجهادي القديم، بل يقودها تيار ثوري جديد يحشد حول المظالم القديمة بسبب سياسات نظام الأسد الوحشية والطائفية. واللافت في الأمر أنّ حكومة الشرع هي من تحاول خفض التصعيد والحفاظ على الأمن العام والاستقرار السياسي. على سبيل المثال، في بعض القرى العلوية في الساحل السوري، يُنظَر إلى الأمن العام - ولو على نحو نسبي - على أنه الضامن ضد انتهاكات الفصائل (ص 293).

ملاحظات ختامية

يعد الكتاب ثريًّا من ناحية الوصف وتقديم الأمثلة وتحليل ظاهرة الهيئة في ضوء التغييرات التي مرت بها منذ نشأتها باسم جبهة النصرة، وصولًا إلى مرحلة الانفصال عن القاعدة والعمل على المشروع الجديد الذي حمل اسم هيئة تحرير الشام. ويتميز بعدة نقاط قوة، من أبرزها: أصالة البيانات التي جاءت بعد عمل بحثي طويل في واحد من أعقد السياقات للتجارب الجهادية، حيث استطاع مؤلفا الكتاب إجراء مقابلات ميدانية مباشرة مع قيادات من الصف الأول للهيئة، بمن فيهم الشرع، وكذلك سبر مسيرة الهيئة وفحصها وتحليلها على امتداد أربعة عشر عامًا من الحرب في سورية، ومن ثم رصد التحول الذي عرفته عبر مدى زمني طويل، وهو ما يسمح بفهم مراحله وأسبابه ومختلف انعطافاته.

فضلًا عن ذلك، يركّز الكتاب على التفاعل بين المحلي والضغوط الخارجية، بوضوح، في تحليل علاقة الهيئة بالسوريين من جهة، وعلاقتها بتركيا وتأثير ضغوط الأمم المتحدة والضغوط الدولية في تصنيفها منظمةً إرهابية في سياسات الهيئة وقراراتها من جهة أخرى.

ولا يركّز، كما هو الحال في العديد من الأدبيات السائدة عن الحركات الجهادية، على الأحداث العسكرية فحسب، بل يبيّن الطريقة التي أدارت بها الهيئة قطاعات التعليم والصحة والتشريعات المحلية والسلطات القضائية والأوراق الثبوتية والأجهزة الأمنية.

34 "الشرع يعيّن أسامة الرفاعي مفتيًا عامًا لسوريا"، **الجزيرة**، 2025/3/29، شوهد في 2026/2/23، في: https://acr.ps/1L9F2QZ

المراجع

العربية

الحسين، محمود. "أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري ... دير الزور أنموذجًا". مجلة **قلمون**. العددان 19-20 (تموز/ يوليو 2022).

"'درع الربيع': معركة الحفاظ على الدور التركي في سوريا". **تقدير موقف**. مركز الجزيرة للدراسات. 2020/3/4. في: https://cutt.ly/UtWRtZZD

المصطفى، حمزة. "جبهة النصرة لأهل الشام من التأسيس إلى الانقسام". **سياسات عربية**. مج 1، العدد 5 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2013).

الأجنبية

Busher, Joel, Leena Malkki & Sarah Marsden (eds.). *The Routledge Handbook on Radicalisation and Countering Radicalisation*. London: Routledge, 2023.

Darwich, May. "Foreign Policy Analysis and Armed Non-State Actors in World Politics: Lessons from the Middle East." *Foreign Policy Analysis*. vol. 17, no. 4 (2021).

Heydemann, Steven. "Tracking the 'Arab Spring': Syria and the Future of Authoritarianism." *Journal of Democracy*. vol. 24, no. 4 (2013).

_____. "The Syrian Conflict: Proxy War, Pyrrhic Victory, and Power-Sharing Agreements." *Studies in Ethnicity and Nationalism*. vol. 20, no. 2 (2020).

Kabalan, Marwan. "Political Economy of the Syrian War: Patterns and Causes." *The Economics of Peace and Security Journal*. vol. 16, no. 2 (2021).

Leenders, Reinoud & Kholoud Mansour. "Humanitarianism, State Sovereignty, and Authoritarian Regime Maintenance in the Syrian War." *Political Science Quarterly*. vol. 133, no. 2 (2018).

Luethje, Boy (ed). *Civilization and Governance: The Western and Non-Western World*. Singapore: World Scientific Publishing Co, 2023.

Van Veen, Erwin. *Armed Organizations and Political Elites in Civil Wars: Pathways to Power in Syria and Iraq*. London: Routledge, 2024.